الفصل الثالث

حروف العربية من حيث الصفات

حروف العربية من حيث الصفات

قسم سيبويه الأصوات العربية، من حيث الصفات والملامح التي تتسم بها، إلى أقسام، بعضها عام: كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، وبعضها خاص بمجموعات صغيرة من الأصوات كالاطباق والانفتاح، وبعضها الآخر خاص بأصوات مفردة كالانحراف والتكرار... وغيرها.

وسنحاول – في الصفحات الآتية- الحديث عن هذه الصفات كما عرضها هذا العالم، ونبين –ما أمكن- وجهة نظر علم الأصوات الحديث في ذلك .

أولاً- الجهر والهمس:

وصف سيبويه الصوت المجهور بأنه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد (عليه) ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أنَّ النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غُنَّة... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جري النفس معه..."[1]

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٤.

ولا يجد المرء، لدى قدماء اللغويين العرب، تفسيراً واضح المعالم لهذين التعريفين اللذين وضعهما سيبويه للمجهور والمهموس من الأصوات، وإنما يجدهما واردين لدى أولئك العلماء على النحو الذي أورده شيخهم، دون أن يجرؤوا، أو يجرؤ أحدهم، على المساس بهما بحذف، أو إضافة، أو حتى بتفسير من شأنه أن يوضح بعض الجوانب الغامضة التي أحاطت بهما؛ فتعاملوا معهما – من هذا المنطلق- وكأنهما قانونان مقدسان لا يجوز مناقشتهما.

أما بعض المحدثين من اللغويين فيتشككون في وضوح دلالة تعريف سيبويه للمجهور والمهموس، ويذهبون إلى أن هذا التعريف "يثير كثيراً من الشُّبَهِ التي لم تجد لها حلا معقولا حتى الآن"[1]، فضلاً عن وجود تداخل والتباس بين مفهومي الجهر والهمس من جهة، ومفهومي الشدة والرخاوة من جهة أخرى لدى هذا العالم[2].

غير أننا وجدنا لغويين آخرين، حاولوا تلمس حلول معينة لتعريفي سيبويه السابقين، وذلك من خلال الربط بين تصورات هذا العالم وحدوسه من جهة، وما وصل إليه علم الأصوات الحديث من حقائق علمية، ومعلومات جلية من جهة أخرى.

---

(١) د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة. ص: ٣٨.

(٢) د. محمد المبارك، فقه اللغة. ص: ٥١.

فالدكتور إبراهيم أنيس يرى أن معنى "اشباع الاعتماد" هو اتصاف " المجهور بأنه صوت متمكن مشبع، فيه وضوح وفيه قوة، وتلك هي الصفة التي يشير إليها الأوروبيون بقولهم "Sonority". فالمجهور أوضح في السمع من نظيره المهموس، لا نزاع في هذا، وليس للاعتماد معنى في كلام سيبويه سوى عملية اصدار الصوت، تلك العملية التي تلازم النَّفَسَ منذ خروجه من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي"[1] غير أننا لا نلمح في كلام سيبويه ما يؤيد هذا التصور الذي ذهب إليه الدكتور أنيس ، بل إن سيبويه نفسه حين يتحدث عن خاصة الوضوح السمعي التي يطلق عليها مصطلح "أندى في السمع"[2]، نجده يطلق هذه الخاصة على الصاد، والسين والزاي، أو ما يسميه حروف الصفير، وذلك في مقابل أصوات لا تتمتع بهذه الصفة كأصوات الظاء، والثاء، والذال، ومن المعلوم أن الصوتين الأولين – وهما الصاد والسين– مهموسان لا مجهوران .

ومن جهة أخرى، فإنّ الدراسة الصوتية الحديثة، تبحث قضية الوضوح السمعي من زاوية غير زاوية الجهر والهمس، التي انطلق منها

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٣-١٢٤.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٤

الدكتور أنيس؛ فتصنيف الملامح التمييزية الأولية[1]، Primary distinctive features – على سبيل المثال- ينظر إلى قضية الوضوح السمعي من ناحية أكوستيكية[2]، أي من ناحية كمية الطاقة الأكوستيكية التي تقترن بصوت ما . وعلى ذلك، فإن هذا التصنيف، يعد أصوات اللام، والميم، والنون، والراء، فضلا عن الحركات، أصواتاً ذات وضوح سمعي[3]. أما تصنيف تشومسكي وهال Chomsky and hall للملامح التمييزية، فإنه يتناول هذه المسألة -أي مسألة الوضوح السمعي- من ناحية فسيولوجية، ويحصر هذه الصفة في بعض الأصوات أمثال الحركات، وأنصاف الحركات، والأصوات الأنفية، والجانبية[4].

---

(١) يقصد بالملامح التمييزية الأولية مجموعة من الخصائص الصوتية التي يعتمد على قياس قيمها النسبية في وصف الأصوات الكلامية. وقد تكون هذه الملامح ثنائية القيم، أو متعددتها. ويبلغ عددها -عند لادفوجد Ladefoged -عشرين ملمحاً. ومن أمثلتها: ملمح الجهر، والأنفية، والطبقية، وغيرها، يُنظر:

Peter Ladefoged, A Course in Phonetics P: 264

(٢) يقصد بالناحية الأكوستيكية Acoustic، ذلك الجانب من علم الأصوات الذي يهتم بدراسة الخصائص الفيزيائية للصوت بعد صدوره من الفم وانتقاله في الهواء.

(3) Ladefoged, Acourse in Phonetics, P: 264
(4) Ibid, P: 248

ومن الجدير بالذكر، أن بعض الدراسات الصوتية ترى أن الأصوات المهموسة -أو بعضها- أشد وضوحاً سمعياً من مقابلاتها المجهورة، ومن ذلك، ما ذهب إليه "لادفوجد" Ladefoged، من أن صوت الزاي -وهو صوت مجهور- في كلمة Vase أقل شدة من صوت السين، وهو صوت مهموس في كلمة Face[1].

ويرى الدكتور أنيس، أن علاقة المجهور بالنفس عند سيبويه تعني الشعور " مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين، أحدهما من الآخر، حتى ليكادان يسدان طريق التنفس"[2]. ولا شك أن الدكتور أنيس يحاول أن يُحمِّلَ كلام سيبويه، في تعريفه للمجهور والمهموس أكثر مما يحتمل، وذلك حين يفسر ظاهرة منع النفس المقترنة بالصوت المجهور، بأنها -على حد قوله - الشعور مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الاخر؛ فسيبويه لم يكن على علم، أو معرفة بالأوتار الصوتية، ودورها الذي قرره المحدثون في انتاج الأصوات المجهورة ، وليس في فكرة "الاعتماد" عند سيبويه - كما شرحها الدكتور أنيس- ما يشي بهذا التصور أو يؤيده. فموضع الاعتماد مثلاً عند الدكتور

(1) Ladefoged, Acourse in Phonetics, P: 179.

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٤.

أنيس هو مجرى الصوت كله منذ صدوره من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي، وليس الحنجرة وما فيها من أوتار صوتية.

أما الدكتور عبد الصبور شاهين، فيرى –من خلال نصوص يوردها لسيبويه– أن هذا العالم " يقصد باشباع الاعتماد، أن للمجهور موضعين: موضعاً في الفم هو مخرج الحرف، وموضعاً في الصدر هو مخرج الجهر، ولذا كان المجهور مشبعاً لقوة اعتماده بازدواجه، على حين كان المهموس ضعيفاً لما أنه معتمد على موضع واحد هو مخرج الفم، والنفس جار معه دون احتباس"[1].

وهذا يوحي بأن الدكتور شاهين يميز بين الجهر والهمس– كما ورد عند سيبويه– باعتبار أن النفس مع الأصوات المهموسة يحظى بدرجة لا بأس بها من الطاقة التي تعطيها الرئتان، في حين أن هذه الطاقة تنحصر في الجانب الصوتي وحده في أثناء انتاج الأصوات المجهورة، وهذا يعني أن هذه الطاقة في حالة الأصوات المجهورة لا تسهم في عملية التنفس الطبيعي، خلافاً للوضع في أثناء انتاج الأصوات المهموسة كما سلف الحديث عنه، ويحاول الدكتور شاهين – كسابقه الدكتور أنيس– أن يضفي بعض الاتجاهات الحديثة بشأن دور الرئتين في انتاج الأصوات، وذلك في أثناء محاولته تفسير رأي سيبويه بشأن الأصوات

(١) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٣٣.

المجهورة، فهو قد اعتمد في تفسيره -فيما يبدو لنا- على النظرية الميكانيكية التي تردُّ الظواهر الصوتية إلى نظرية ديناميكا الغازات -أي الهواء- الخارجة من الرئتين، في حين أغفل وجهة النظر المقابلة التي ينادي بها بعض علماء الأصوات المحدثين من أمثال جارد Garde وهسن Husson، والتي تنسب أوضاع الوترين الصوتيين إلى توجيه الدِّماغ من خلال الاتصال العصبي بهما[1].

وعلى أي حال، فإن ما ذهب إليه الدكتور شاهين من إشباع الاعتماد المنتج للصوت المجهور، أمر يرتبط بموضعي الصدر والفم، وأنَّ ضعف الاعتماد المنتج للصوت المهموس يرتبط بأحادية المخرج في الفم، يعني أن الصوت المجهور يستمد خصائصه المخرجية من موضعين، هما: الصدر والفم، في حين يستمد الصوت المهموس خصائصه المخرجية من موضع واحد هو الفم، فالفارق بينهما يكمن في موضع الصدر الخاص بالصوت المجهور. ولقد فسر الدكتور إبراهيم أنيس موضع الصدر الذي هو مخرج الجهر تفسيراً موفقاً عندما قال: بأَنه يشير إلى "صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة، وهذا الصدى نحس به ولا شك في الصدر، كما نحس به حين نسدُّ الأذنين بالأصبع، أو حين نضع

(1) Brosnahan, L. F and Malmberg, B. Introduction to Phoneics P: 38

الكفة على الجبهة، فهو الرنين الذي نشعر به مع المجهورات، وسببه تلك الذبذبات التي في الحنجرة"[1].

أما الأصوات المهموسة، التي يعتمد لها في موضع الفم وحده، فإنها تخلو من صدى الذبذبات التي تصاحب الأصوات المجهورة، فتخرج من الفم وحده، على نحو ضعيف.

أما الدكتور تمام حسان، فيرى أن المقصود بالاعتماد، هو ضغط موضعه أو منشؤه الحجاب الحاجز –وليس الرئتين كما يرى الدكتور شاهين– الذي يضغط على الرئتين لإفراغ ما فيهما من هواء، وهذا الضغط يقع على مخرج الحرف –في الفم والخياشيم– أي المكان الذي يتم نطقه منه[2].

وفيما يتعلق بكلمة "الموضع" التي وردت في تعريف سيبويه للمجهور والمهموس من الأصوات، فقد اختلفت آراء اللغويين السابقين في تفسيرها؛ فالدكتور أنيس يعد الموضع هو موضع الاعتماد، وهو يختلف عن المخرج Point of articulation ويقصد به –أي موضع الاعتماد– المجرى الصوتي كله منذ صدوره من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي. أما الدكتور حسان فيشبه الدكتور أنيس في اعتباره

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٢.

(٢) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٦١-٦٢

الموضع هو موضع الاعتماد أيضاً. وهو -عنده- مقابل للحجاب الحاجز. أما الدكتور شاهين، فيعد الموضع مكافئاً للمخرج، مع اختلاف مفهوم المخرج عنده عنه عند الاخرين، حيث يعتبر أن للمجهور موضعين، أو مخرجين: هما الصدر والفم، وللمهموس موضعاً واحداً، أو مخرجاً واحداً هو الفم.

غير أن الدارس للتراث اللغوي عند العرب لا يعدم الوقوع على إشارات قيمة توضح مفهومي الموضع والاعتماد اللذين أشار إليهما سيبويه؛ فابن درستويه -على سبيل المثال- يرى "أن الحروف كلها مقطعها هناك (يقصد بذلك أقصى الحلق) لأن الصوت كله إنما يخرج من الحلق، ثم يحصره المعتمد فيصيره حرفا"[1].

ومع ذلك، فإننا لا نجد سبباً معقولاً للتفرقة بين مفهومي الموضع والمخرج سوى بعض المحاولات التي يقدمها بعض الدارسين اللغويين المحدثين للربط بين المعارف الصوتية -عن دور الحنجرة ووتريها الصوتيين والجهاز الصوتي بوجه عام- في تفسير الظواهر الصوتية ومنها ظاهرتا الجهر والهمس، وتصورات القدماء -وعلى رأسهم سيبويه- لهاتين الظاهرتين. لذلك فإن مصطلح الموضع عند

---

(١) ابن درستويه: شرح الفصيح. ١/ ١٠٨. نقلاً عن د. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة. ص: ٣٨

سيبويه لا يعدو أن يكون -في نظرنا- مجرد اصطلاح مكافئ لمصطلح المخرج Point of articulation المعروف في الدراسات الصوتية الحديثة، بل إن سيبويه نفسه يكرر هذين المصطلحين ويستعملهما في أماكن مختلفة من "كتابه" لأداء معنى واحد بعينه، دون تمييز بينهما[1].

ومن المعلوم، أن الدراسات الصوتية الحديثة تتناول موضوع الجهر والهمس من زاوية الأوتار الصوتية Vocal Cords / bands، وما يطرأ عليها من اهتزاز أو عدم اهتزاز؛ فالأصوات التي يهتز معها الوتران الصوتيان ويتذبذبان، تكون أصواتاً مجهورة Voiced، أما تلك الأصوات، التي لا يهتز معها الوتران الصوتيان ولا يتذبذبان، فإنها تكون أصواتاً مهموسة Voiceless. ولكن سيبويه لم يكن -كما يقول شاده- يعرف الحنجرة، ولا أجزاءها كالمزمار، والأوتار الصوتية"[2].

والآن، وبعد أن استعرضنا ملحوظات هؤلاء العلماء، حول رأي سيبويه في المجهور والمهموس من الأصوات فإننا نتساءل: ماذا يعني سيبويه بكلا المصطلحين؟ وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل، فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى أن الغموض والتعقيد، اللذين يحيطان بتعريف سيبويه للمجهور والمهموس، قد لا يزيلهما -نهائياً- تصور أو حدس،

---

(١) يُنظر -على سبيل المثال- الكتاب ٤/ ١٧٤، ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) شاده: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. ص: ٥.

وإن كانت التصورات والحدوس المختلفة، التي قدمت وتقدم، لإيضاح رأي سيبويه من شأنها أن تخفف من حدة الضّباب الذي يلفُّ لغة سيبويه في هذا المجال.

فالصوت المجهور -كما فهمنا من تعريفات سيبويه المختلفة له- هو صوت يحتاج -من أجل النطق به- إلى عمليتين متلازمتين: تتمثل أولاهما في الآلية العضوية المعينة، التي تتخذها بعض أعضاء النطق في أحد مخارج التجويف الحلقي، أو في أحد مخارج التجويف الفموي، من أجل انتاج الصوت المجهور. وتمثل هذه الآلية العضوية موضع النطق الرئيس الذي يتخذه صوت مجهور ما في أثناء النطق به.

أما العملية الثانية، فتتمثل فيما يصاحب العملية الأولى من ضغط للهواء في منطقة الحلق، الذي يشتمل، في تصور سيبويه، على مساحة واسعة تتضمن الحنجرة، التي تشتمل بدورها على الوترين الصوتيين -كما ذكر سيبويه في أثناء تعريفه للمجهور، أو في منطقة الصدر- كما ذكر سيبويه في أثناء تفريقه بين المجهور والمهموس من الأصوات.

ففي حالة ضغط الهواء في المنطقة الأولى، وهي منطقة الحلق، فإن تيار الهواء، الصادر من الرئتين، والمار بالقصبة الهوائية، يندفع عبر التجويف الحنجري، فيحدث رنيناً، أو صدى ناجماً عن تسرب تيار الهواء خلال الوترين الصوتيين المتقاربين وإحداث ذبذبة فيهما. فكأن هذه

الذبذبة المصاحبة للصوت المجهور، الذي يتم انتاجه في موضع ما من مواضع انتاج الأصوات، تكسب هذا الصوت تلك الخاصة، التي اصطلح سيبويه على تسميتها بالجهر.

أما بالنسبة للمنطقة الثانية، وهي منطقة الصدر، فلعل شيخنا كان يشير، بحديثه عنها، إلى الأثر الناتج عن ذبذبة الوترين الصوتيين المصاحبة في العادة للصوت المجهور، والذي نحس به -كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس- ولا شك في الصدر...[1]

ولعلنا نلتمس الدليل، على ذلك، فيما ذهب إليه سيبويه من أن الهواء، المنتج للصوت المجهور، يقتصر عمله على عملية الانتاج الصوتي فقط، ولا يقوم - بالإضافة إليها- بعملية التنفس؛ فهو -في أثناء تمييزه المهموس من المجهور- يقول:"... وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه."[2]

أما الصوت المهموس -كما فهمنا من تعريفات سيبويه وتصوراته المختلفة -فهو صوت يحتاج- من أجل النطق به- إلى عملية رئيسة تتمثل في الآلية العضوية المعينة، التي تتخذها بعض أعضاء

---

(١) د. ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية. ص: ١٢٢

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٣٤.

النطق، في أحد المخارج الصوتية، أمَّا تيار الهواء، فإنه يستمر في التدفق دونما حاجز أو تضييق، خلف منطقة الإخراج، يوقفه أو يحدّ من جريانه واندفاعه؛ فكأن وظيفة الهواء –مع الأصوات المهموسة– تقتصر– صوتياً– على إكساب الآلية العضوية جودها، الذي يتجسد على هيئة صوت اعتمد له في موضع واحد، دون أن يكون له في أي موضع آخر من القناة الصوتية تأثير يكسب الصوت قوة، على غرار ما كان مع الصوت المجهور. ولهذا، فإن الهواء – مع الأصوات المهموسة– يقوم – كما يفهم من كلام سيبويه السابق– بوظيفتين في آن واحد هما: التنفس، وانتاج الصوت. ولعل سيبويه كان يشير إلى هذا الذي نذهب إليه عندما قال:"وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبيين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر، فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجري في الحلق... أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها، وذلك مما يزجي الصوت، ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم في المجهور، فأخرج الصوت من الفم ضعيفاً"[1].

وهكذا، فإنه يتضح لنا بأن الاعتماد –مع الأصوات المجهورة– يكون مزدوجا، مما يكسب الصوت صفة الاشباع والقوة. في حين يكون

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٠-١٢١.

الاعتماد –مع الأصوات المهموسة– أحادياً، مما يضفي على الصوت صفة الهمس أو الضعف.

ويبدو أن سيبويه قد أراد لهذه الصورة مزيداً من الجلاء والوضوح، عندما ذهب إلى أن تعطيل الاعتماد في منطقة الحلق أو الصدر، وهو الاعتماد المصاحب للآلية العضوية المنتجة للصوت المجهور، من شأنه أن يحول الصوت المجهور إلى مقابله المهموس. فهو يقول:" والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف، ولا تصل إلى ذلك في المجهور، فإذا قلت "شخص" (وكل صوامتها مهموسة) فإن الذي أزجى هذه الحروف صوت الفم"[1].

ويلتقي تصنيف سيبويه للأصوات المجهورة والمهموسة مع التصنيف الصوتي الحديث لهذين النوعين من الأصوات، غير أن سيبويه – في تصنيفه للأصوات المجهورة– قد عدَّ أصوات القاف والطاء والهمزة أصواتاً مجهورة، في حين يعدّ الدرس الصوتي الحديث الصوتين الأَوَلَيْن صوتين مهموسين، والصوت الأخير صوتاً لا هو بالمجهور ولا بالمهموس على أرجح الآراء. وسنرجئ الحديث عن هذه الأصوات إلى موضع لاحق من هذه الدراسة[2].

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢١

(٢) يُنظر، ص: ١٣٠– ١٥٠. من هذه الدراسة.

ثانياً- الشدة والرخاوة:

عرف سيبويه الحرف الشديد؛ أي الانفجاري Plovise بأنه الحرف "الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة، والقاف، والكاف... وذلك أنك لو قلت أَلْحَجَ ثم مددت صوتك لم يُجْرِ ذلك".

أما الحرف الرخو الاحتكاكي Fricative، فهو - كما يعرفه سيبويه- الحرف الذي يجري فيه الصوت، كالهاء، والحاء، والغين، والخاء،... وذلك إذا قلت الطَّسُّ، وانقَضْ وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت"[1].

ويبدو للوهلة الأولى، أن هناك -كما يقول بعض الدارسين- خلطاً وتداخلاً بين هذين التعريفين اللذين قدمهما سيبويه للشديد والرخو من الأصوات، وتعريفيه السابقين للمجهور والمهموس. ولكن الباحث المدقق في تعريفات هذا العالم لتلك الملامح المصاحبة للصوت يلاحظ أن سيبويه كان -فيما نرى- واضحاً مع نفسه، ودقيقاً -إلى حدٍّ ما- في استعمال اللغة المعبرة عن قصده وفكره.

فهو -في تعريفه للمجهور من الأصوات- يذكر بأن الذي يمنع من الجريان مع الحرف المجهور، الذي أشبع الاعتماد في موضعه، هو

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٤-٤٣٥.

النفس فقط في حين لا يمنع هذا النفس -كما يقول سيبويه- من الجريان مع الحرف المهموس، الذي أضعف الاعتماد في موضعه.

أما الصوت الشديد، فقد ذكر سيبويه، أن الذي يمنع من الجريان من أثناء انتاجه هو الصوت نفسه، وليس النفس فقط، في حين لا يمنع الصوت -كما يقول سيبويه- من الجريان في أثناء انتاج الأصوات المجهورة والمهموسة والنطق بهما.

فالصوت -مع المجهور والمهموس- يجري، ولا يتوقف، ولكن القضية الخلافية بين الجهر والهمس -لدى سيبويه- تكمن في جريان النفس في أثناء النطق بالصوت أو عدم جريانه معه؛ ففي حالة النطق بالأصوات المجهورة، يقوم الهواء، أو تيار الهواء الصادر من الرئتين، بوظيفة النطق، في حين يقوم هذا التيار، في حالة النطق بالأصوات المهموسة، بوظيفتي النطق والتنفس معاً.

أما في حالتي الشدة والرخاوة، فإنَّ القضية الخلافية بينهما تكمن في جريان الصوت والنفس معاً، أو عدم جريانهما.

ففي أثناء النطق بالأصوات الشديدة، فإنَّ الصوت -سواء أكان مجهوراً أم مهموساً- ومعه النفس بطبيعة الحال، يتوقف عن الجريان لفترة من الزمن، بسبب إغلاق المخرج الناتج عن التقاء عضوي نطق والتحامهما في موضع ما من مواضع النطق. أما في أثناء النطق بالأصوات

الرخوة، فإنَّ الصوت – سواء أكان مجهوراً أم مهموساً- ومعه النفس أيضاً، لا يتوقف عن الجريان، وإنما يمكن النطق به بسبب اقتراب عضوي نطق –في موضع ما من مواضع النطق- من بعضهما اقتراباً يمكِّن تيار الهواء المنتج للصوت من المرور من خلال هذين العضوين المتقاربين.

ولعل المطّلع على الصورة الكاملة لحديث سيبويه، عن هذين النوعين من الأصوات، والأمثلة التوضيحية التي قدمها هذا العالم، يخرج بأن سيبويه قد اعتمد –في فهمه للأصوات الشديدة والرخوة- معيارين اثنين؛ هما:

١- عدم جريان الصوت، أو عدم مواصلة النطق به.

٢- لزوم عضو نطق ما موضع انتاج الصوت[١].

إنَّ معظم الأصوات، التي صنفها سيبويه في كتابه، في هذا المجال، هي من الأصوات التي أمكنه تطبيق المعيارين السابقين عليها معاً، بيد أنه اعتمد في تصنيفه لبعض الأصوات العربية معياراً واحداً فقط.

---

(١) ذكر ابن يعيش أن "الفرق بين المجهورة والشديدة، أن المجهورة يقوى الاعتماد فيها، والشديدة يشتد الاعتماد فيها بلزومها موضعها لا بشدة الوقع". يُنظر كتابه شرح المفصل. ١٠/ ١٢٩.

فاللام والنون والميم عنده -على سبيل المثال- من الأصوات التي لا ينطبق عليها المعيار الأول، إذ إن الصوت يجري فيها -كما يقول- في حين ينطبق عليها المعيار الثاني، وهو لزوم عضو النطق -وهو اللسان هنا- موضعه، وعدم تجافيه عنه، لذا نجده يعد هذه الأصوات الأخيرة من النوع الشديد، أما بالنسبة لصوت الراء، فيلاحظ، من كلام سيبويه، أنه يعده صوتاً شديداً يجري فيه الصوت بسبب خاص به وهو تكريره، وفي حالة عدم تكريره، لا يجري الصوت فيه كما يقول[1].

ويقابل مصطلحا سيبويه -الشدة والرخاوة- مصطلحي المحدثين من علماء الأصوات وهما الانفجار Plosive، والاحتكاك Fricative على التوالي. ويتحقق الانفجار في الصوت نتيجة التدخل بقطع عمود الهواء نتيجة الالتقاء المحكم بين عضوين من أعضاء النطق، فعند هذا الالتقاء، يحتبس الهواء خلف نقطة الالتقاء لفترة، ثم ينطلق بعد الاحتباس على هيئة انفجار، وذلك عندما يكون انفصال العضوين المشتركين في النطق مفاجئاً، وبهذه الطريقة يحدث الصوت الانفجاري.

أما الاحتكاك؛ فإنه يتحقق نتيجة التدخل بتضييق مجرى الهواء، وما ينشأ عنه من تقارب شديد بين عضوين من أعضاء النطق، ويترتب على هذا التقارب، أن جزئيات الهواء تتجمع لعبور المضيق، وتنشأ

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

مجموعة من التداخلات مع احتكاك جزئيات الهواء بالأسطح الملامسة للأعضاء الناطقة، وبهذا ينشأ احتكاك مسموع نتيجة اندفاع الهواء في هذا المضيق.

وتجدر الإشارة إلى أن تصنيف سيبويه للأصوات الشديدة (الانفجارية) والرخوة (الاحتكاكية) يلتقي مع التصنيف الصوتي الحديث لهذين النوعين من الأصوات، غير أن سيبويه -في تصنيفه للأصوات الرخوة (الاحتكاكية) قد عدَّ صوت الضاد صوتاً رخواً، في حين تعدّه الدراسات الصوتية الحديثة صوتاً شديداً انفجارياً. وسنرجئ الحديث عن هذا الصوت إلى موضع لاحق من هذه الدراسة[1].

ومن ناحية أخرى، فقد أضاف سيبويه إلى صفتي الشدة (الانفجار) والرخاوة (الاحتكاك) آنفتي الذكر، صفة ثالثة نستطيع أن نسميها صفة الحياد -أو التوسط- بين الشدة والرخاوة، وعد صوت العين وحده متسماً بهذه الصفة، فهذا الصوت واقع -على حد قول سيبويه- " بين الرخوة والشديدة"[2] غير أن بعض اللغويين، الذين جاءوا بعده كابن الجزري – على سبيل المثال- أضافوا إلى هذا الصوت –

(١) يُنظر، ص: ١٥٠-١٦٥. من هذه الدراسة.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

الذي عدَّه سيبويه متوسطاً- أصوات اللام والميم والنون والراء[1]. وزاد بعضهم، على هذه الأصوات، الواو والياء والألف؛ وجمعوا الكل في اللفظ "لم يروعنا "[2]، وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة وجهة نظر ابن الجزري ، غير أن هذه الدراسات لا تعد هذه الأصوات -على نحو ما فعل اللغويون العرب- أصواتاً متوسطة بين الشدة والرخاوة، وإنما تعدّها مجموعة صوتية خاصة لا هي بالشديدة، ولا هي بالرخوة؛ فهي - من وجهة النظر الحديثة لعلم الأصوات- أصوات متوسطة بين الصوامت Consonants، والحركات Vowels، وليست متوسطة بين الشدة والرخاوة؛ لأنها تتسم -كما يقول الدكتور كمال بشر- بخواص الأصوات الصامتة، ولكنها، في الوقت نفسه، تبدي شبهاً معيناً بالحركات[3].

وعلى أي حال، فإن هذه المجموعة الصوتية، تمثل نوعاً مستقلاً من الأصوات، يطلق عليها الدرس الصوتي الحديث مصطلح الأصوات المائعة Liquids، أو الرنانة Resonants.

---

(١) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر. ١/ ٢٠٢.

(٢) ابن جني: سر صناعة الاعراب. ١/ ٦١.

(٣) د. كمال بشر: علم اللغة العام. الأصوات. ص: ١٣١.

ثالثاً- تصنيفات أخرى:

لم يقتصر سيبويه، في تناوله للجانب الصوتي في اللغة، على التصنيفين السابقين للأصوات، وهما الجهر والهمس من جهة، والشدة والرخاوة من جهة اخرى. وإنما نجد عنده مناقشة ناضجة لمجموعات صوتية أخرى، استند، في تصنيفه لها، إلى معايير خاصة، وسنحاول، فيما يأتي، تبين أهم هذه المجموعات الصوتية لديه:

١) مجموعتا الأصوات المطبقة والمنفتحة: تنقسم الأصوات جميعاً عنده إلى قسمين رئيسين، هما:

أ- مجموعة الأصوات المطبقة Velarization: وتشمل أصوات الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، حيث يطبق -كما يذكر سيبويه- معهن اللسان برفعه إلى الحنك الأعلى -وهو الطبق- وانطباقه من مواضعهن إلى ما يحاذي الحنك الأعلى من اللسان، وبحيث يكون الصوت محصوراً فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف[1]. ثم يقارن سيبويه بين هذه الأصوات الأربعة، ونظائرها المرققة قائلاً:" فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُيِّن ذلك بحصر الصوت، ولولا الاطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦.

الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها[1].

وهو يقصد بكلامه هذا، أن اللسان، في حالة انتاج هذه الأصوات، ينطبق على سقف الحنك الأعلى في موضعين اثنين لا في موضع واحد، كما هو الحال في الأصوات غير المطبقة، مثل: الدال والزاي، حيث ينص سيبويه على أن هذين الصوتين –ونحوهما "ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن"[2] وهذان الموضعان، هما:

١. موضع الإخراج الأساسي: Primary Articulation: وهو المخرج الأسناني في حالة انتاج صوت الظاء، والمخرج الأسناني اللثوي في حالة انتاج أصوات الصاد، والضاد، والطاء.

٢. موضع الإخراج الثانوي:Secondary Articulation[3]: ويقصد به ارتفاع مؤخرة اللسان تجاه الطبق بحيث لا تتصل به.

ب- الأصوات المنفتحة: وتشمل – عند سيبويه – جميع الأصوات باستثناء الأصوات الأربعة المطبقة السابقة. وتمتاز هذه

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٦.

(٣) يختلف المقصود بالإخراج الأساسي والثانوي عن المقصود بالإخراج المزدوج Double articulation الذي تتكافأ فيه أهمية موضعي الإخراج في عملية تحديد ماهية الصوت. يُنظر:

David Crystal, A First Dictionary of Linguistics and Phonetics. P: 33.

المجموعة من الأصوات، بأن اللسان -كما يذكر سيبويه - لا يطبق معها برفعه إلى الحنك الأعلى ، وإنما ينحصر الصوت عند وضع اللسان في مواضعهن.

ومن الجدير بالذكر أن سيبويه لم يقصر حديثه على صفة الاطباق، وإنما تناول -في موضع آخر من كتابه أيضاً-ما أطلق عليه صفة الاستعلاء التي تشمل -بالإضافة إلى أصوات الإطباق الأربعة السابقة - أصوات الغين، والقاف، والخاء[1]، حيث تشترك هذه الأصوات الأخيرة، مع الأصوات الأربعة المطبقة، التي نص على اطباقها سيبويه، في صفة التفخيم أو صفة الاستعلاء[2]. وذلك في مقابل صفة الاستفال كما نص القدماء، غير أن الأصوات الأربعة المطبقة؛ وهي الصاد، والضاد،

---

(١) الكتاب. ٤/ ١٢٨- ١٢٩.

(٢) يميز بعض اللغويين بين الاستعلاء والاطباق، ويتمثل ذلك في أنّ أقصى اللسان في حالة الاستعلاء يرتفع إلى جهة الحنك الأعلى، سواء استعلى معه بقية اللسان أم لا، وأحرفه سبعة يجمعها "خص ضغط قظ". أما الاطباق - ومعناه في اللغة الالصاق- فيعني استعلاء أقصى اللسان ووسطه إلى جهة الحنك الأعلى، وانطباق الحنك على وسط اللسان بحيث ينحصر الصوت بينهما، وأحرفه أربعة، هي: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد. يُنظر كتاب: اتحاف العباد لابن حمّاد. ص: ١٤.

والطاء، والظاء، أشد تفخيماً من الأصوات الثلاثة الأخيرة، بل إنَّ بعض المحدثين من اللغويين يطلق على الأصوات الأربعة صفة التفخيم من الدرجة الأولى Complete Velarization، ويطلق على الأصوات الثلاثة الأخيرة صفة التفخيم من الدرجة الثانية، أو أنها ذات تفخيم جزئي[1] Partial Velarization .

٢) مجموعة الأصوات الصفيرية Sibilants: ومن مجموعات الأصوات عند سيبويه، مجموعة أصوات أطلق عليها –هذا العالم– اسم "حروف الصفير" وتشتمل هذه المجموعة على أصوات الصاد ، والسين والزاي ، وهذه الأصوات – التي تمتاز بالصفير كما يوحي بذلك اسمها –"أندى في السمع"[2]. ولعله أراد بقوله: "أندى في السمع" في وصف هذه المجموعة الصوتية، أنها شديدة الوضوح في السمع بالقياس إلى غيرها من الأصوات كالظاء، والثاء، والذال، حيث نص على أن أحرف الصفير، "لسن في السمع كهذه – يقصد الظاء والثاء والذال

(١) د. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي. ص: ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٤.

لخفائها"[1].

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، أن مفهوم سيبويه " لنداوة الصوت في السمع "، أو ما يمكن تسميته بالوضوح السمعي، يختلف عن مفهوم الوضوح السمعي المقابل للمصطلح الأجنبي Sonority، فهذا المصطلح الأخير يعيِّن كمية الطاقة الأكوسيتكية، التي تقترن بصوت ما، في حين يعيِّن الصفير Sibilant كمية طاقة الترددات العالية في الصوت[2]. وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة ما ذهب إليه سيبويه من اعتبار أصوات الزاي والسين والصاد مجموعة صوتية خاصة ، غير أن هذه الدراسات تضيف، إلى هذه المجموعة، صوتي الشين والجيم[3] (المعطشة، أو الشامية). وعلى أي حال، فإن الأصوات الصفيرية تمثل نوعا خاصاً من الأصوات الاحتكاكية التي يتم انتاجها بدفع تيار الهواء عبر فتحة أخدودية واقعة بين اللسان وسقف الحنك الأعلى[4].

٣) مجموعة الأصوات المنحرفة: تقتصر هذه المجموعة على حرف واحد هو اللام؛ وهو -كما وصفه سيبويه- "حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٥.

(2) Peter Ladefoged, A Course in Phonetics Pp: 146, 264.
(3) Hartmann & Strok. Dictionary of Language and linguistics. P. 208
(4) Ibid P. 208.

يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة ...، وإن شئت مددت فيها – أي اللام- الصوت، وليس كالرخوة؛ لأنَّ طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه، وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيَتَيْ مستدق اللسان فويق ذلك"[1].

ويعود السبب في تسمية سيبويه هذا الحرف بهذا الاسم، إلى أنَّ النفس قد انحرف عن طريقه، على الرغم من اتصال طرف اللسان باللثة اتصالاً محكماً، وجرى من أحد جانبي اللسان أَو كليهما [2].

وإذا كان المحدثون من اللغويين يطلقون مصطلح جانبي Lateral على هذا الصوت، فإن سيبويه لم يجانبه التوفيق في تسميته التي أوردها لهذا الصوت، حيث كان منطلقه في هذه التسمية هو ما يطرأ على تيار الهواء المتدفق من انحراف في الاتجاه والقصد. أما المحدثون – وهم على صواب في تسميتهم أيضاً- فقد كان منطلقهم، في تسمية هذا الصوت بالجانبي، هو الموضع الذي يخرج منه تيار الهواء في أثناء تدفقه لإنتاج هذا الصوت.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

(2)Crystal , p.204.

٤) مجموعة الأصوات المكررة: تقتصر هذه المجموعة - كسابقتها- على حرف واحد هو "الراء". وهو "حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره... ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه."[١]

ووصف سيبويه لهذا الصوت بالتكرير ناجم عن كون الصوت لا يجري في المخرج إذا لم يحدث هذا التكرير؛ أي أنه صفة ذاتية في الراء. وكلام هذا العالم عن صوت الراء واضح، ويقترب مما تقرِّره الدراسات الصوتية الحديثة.

بيد أن سيبويه -كما هو واضح جلي- يعد الراء العربية راء مكررة فحسب Rolled/ Trill؛ فهو يتحدث عنها في موضع آخر من كتابه قائلاً:" والراء إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة، والوقف يزيدها إيضاحاً"[٢]، ويؤيد الدكتور إبراهيم أنيس وجهة نظر سيبويه في تكرارية هذا الصوت[٣]، في حين يفرِّق كثير من الدارسين اللغويين بين نوعين من الراء، أحدهما: تكرارية، أو مترددة، وهي التي تحدث عنها سيبويه، والثانية: لمسية متحركة غير مترددة Flap/ Tap.

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

(٢) السابق. ٤/ ١٣٦.

(٣) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٦٦.

٥) مجموعة الأصوات ذات الغنة: تشمل هذه المجموعة صوتي النون والميم، وهما – كما وصفهما سيبويه- حرفان شديدان يجري معهما الصوت؛ "لأن ذلك الصوت غنة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك، واللسان لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجرِ معه الصوت، وهو النون، وكذلك الميم"[١].

ويقصد بالغنَّة "أن أحد هذين الصوتين إذا جاور صوتاً آخر يؤثر فيه بالإخفاء، فإنه يختفي، ويترك مكانه غنة، أي صوتاً أنفياً يدل على وجوده"[٢]. ويعرف الدكتور ابراهيم أنيس الغنة بأنها "إطالة لصوت النون مع تردد موسيقي محبب فيها؛ فالزمن الذي يستغرقه النطق بالغنة هي في معظم الأحيان ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة... فالفرق بين النون المظهرة، ونون الغنة فرق في الكمية من ناحية، وتطور النون وميلها إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى."[٣]

وعلى الرغم من دقة الشرح والتوضيح، الذي يقدمه المحدثون لمعنى الغُنَّة، فإننا نعتقد أن سيبويه كان يقصد بها مجرد تميز صوتي النون

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

(٢) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٤٣

(٣) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٧٠

والميم بالصفة الأنفية، التي يتسمان بها، وتميزهما من غيرهما من الأصوات.

ويُفهم من كلام سيبويه، عن مجموعات الأصوات المنحرفة، والمكررة، وذات الغُنَّة، أنه يصنف أصوات اللام، والراء، والنون، والميم، من حيث المبدأ، في عداد الأصوات الشديدة، غير أنه -في أثناء مناقشته لهذه الأصوات ووصفه لآلية انتاجها- يذهب- فيما يبدو لنا- إلى أن هذه الأصوات ليست بالشديدة الصرفة، ولا بالرخوة الصريحة، وإنما فيها - كما يستشف من كلامه- من خصائص هذه وفيها أيضاً - من سمات تلك.

فالصوت -في أثناء النطق بهذه الحروف-يجري، خلافاً للأصوات الشديدة، التي يمنع الصوت من الجريان في أثناء النطق بها، كما أن عضو النطق في أثناء عملية النطق بهذه الحروف- يلزم موضعه، ولا يجافيه، خلافاً للأصوات الرخوة، التي تسمح للصوت -في أثناء النطق بها- بالجريان دونما مانع أو سدٍّ يحول دون ذلك.

ففي هذه الأصوات من خصائص الشدة المتمثلة بلزوم عضو النطق - وهو اللسان هنا- وعدم تجافيه لموضع النطق بالصوت، وفيها - إضافة إلى ذلك - من خصائص الرخاوة المتمثلة في عدم الاعتراض للصوت والسماح له بالجريان؛ ففي أثناء مناقشة سيبويه لصوت اللام -

على سبيل المثال- نجده يصفه – ابتداء – بالشدة، ثم ما يلبث أن يتبع وصفه هذا بقوله :" جرى فيه الصوت...، ولم يعترض (عليه) كاعتراض الحروف الشديدة". وبعد ذلك نجد سيبويه يقرر بأنَّ هذا الصوت "ليس كالرخوة لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه". فكأنَّ سيبويه يضع القاعدة، ثم يذكر- بعد ذلك – الظروف الخاصة التي تحيط بالصوت، والتي تُحدث فيه بعض الانعطاف أو الاستثناء؛ فاللام صوت شديد، ولكنه – لسمة مميزة له – يسمح للصوت بالجري، خلافاً لما هو عليه حال الأصوات الشديدة ، وهو – في الوقت نفسه – صوت لا يتجافى طرف اللسان عن موضع النطق به ، خلافاً لما هو عليه حال الأصوات الرخوة؛ فكأن سيبويه يريد أن يقول ببساطة ووضوح: إنَّ هذا الصوت – ومثله أصوات الراء، والنون، والميم- هو صوت متوسط بين الشدة والرخاوة، أو أنه واقع في مرتبة وسيطة بين الشدة والرخاوة.

ويلتقي شيخنا، فيما يتصوره هنا بالنسبة لهذه الأصوات، مع ما يتصوره الدرس الصوتي الحديث لها، من حيث اعتبارها مجموعة صوتية خاصة، أو مستقلة. غير أن الفارق بين التصورين يقوم في أن النطرة الصوتية الحديثة لهذه الأصوات، لا تعدها –كما فعل قدماء لغوييننا العرب- متوسطة بين الشدة والرخاوة، وإنما تعدُّها متوسطة بين الصوامت والحركات، كما ذكرنا في موضع سابق؛ فالهواء، في أثناء النطق

بهذه الأصوات، يمكن أن يمرَّ بمجراه دون احتكاك أو انحباس من أي نوع، إمَّا لأن مجراه في الفم يتجنب المرور بنقطة السد (أو التضييق)، كما في صوت اللام، أو لأنَّ هذا التضييق غير ذي استقرار، كما في صوت "الراء"، أو لأنَّ الهواء لا يمرُّ بالفم، وإنما يمرُّ بالأنف، كما في صوتي "الميم" و"النون". وقد اصطلح على تسمية هذا النوع المستقل من الأصوات -كما ذكرنا في موضع سابق- بالأصوات المائعة أو الرنانة Liquids / Resonants .

٦) مجموعة الأصوات اللينة: تشتمل هذه المجموعة الصوتية – عند سيبويه – على صوتي الواو، والياء، وقد أطلق هذا العالم على هذين الصوتين مصطلح اللين؛ نظراً "لأنَّ مخرجهما يتسع الهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما"(١).

٧) مجموعة الأصوات الهاوية: تقتصر هذه المجموعة الصوتية – عند سيبويه، وعند غيره من العلماء أيضاً- على صوت واحد فقط هو الألف. وقد وصف سيبويه هذا الصوت بقوله: إنَّه "حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه ، أشدّ من اتساع مخرج الياء والواو"(٢).

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٥-٤٣٦.

ويعد سيبويه أصوات هاتين المجموعتين- وهي الواو، والياء، والألف- "أخفى الحروف لاتساع مخرجها"[1]، ثم وجدناه يرتب – بعد ذلك – نسب الخفاء، واتساع المخرج بين هذه الأصوات الثلاثة على النحو الآتي: "وأوسعهن مخرجاً الألف، ثم الياء، ثم الواو"[2].

وعلى الرغم من كون سيبويه قد صنف الواو والياء في مجموعة صوتية مستقلة عن الألف، واعتبرهما مجموعتين منفصلتين، إلا أننا رأيناه – في مواضع متفرقة من كتابه – يعامل هذه الأصوات الثلاثة معاملة تكاد تكون واحدة ، أو هي – بالفعل- واحدة؛ فهو – في باب الوقف في الواو والياء والألف – يذكر هذه الأصوات معاً، ثم يصفها بأنها "غير مهموسات" وبعد ذلك نراه ينص على أنَّ هذه الحروف "حروف لين ومد، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدَّ للصوت، فإذا وقفت عندها لم تضمَّها بشفة ولا لسان، ولا حلق كضم غيرها، فيهوي الصوت إذا وجد متسعاً حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة، وإذا تفطَّنت وجدت مسَّ ذلك، وذلك قولك: ظلموا، ورمَوْا، وعَمِي، وحُبْلَى"[3].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٦.

(٣) السابق. ٤/ ١٧٦.

وقد سار على هدى خطوات سيبويه، في هذا المجال، معظم اللغويين القدماء، الذين جاءوا بعده، من أمثال؛ ابن جني، والزمخشري، وشارح مفصله ابن يعيش، وابن الحاجب، وشارح شافيته الرضي، وابن عصفور، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم...، فابن جنِّي – على سبيل المثال- يتحدث عن هذه الحروف بقوله: "والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف، ثم الياء، ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف"(١).

ويقول ابن يعيش في معرض حديثه عن الأصوات العربية – "ومنها الحروف اللينة، وهي الألف، والياء، والواو، وهي حروف المد واللين، وقيل لها ذلك لاتساع مخرجها، والمقطع إذا اتسع انتشر الصوت ولان، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلب، إلا أنَّ الألف أشد امتداداً واستطالة، إذ كان أوسع مخرجاً، وهي الحرف الهاوي...، ويقال له الجرسي لأنه صوت لا معتمد له في الحلق والجرس الصوت، وهو حرف اتسع مخرجه لهواء الصوت أشد من اتساع مخرج الواو والياء..."(٢)

ويعزو سيبويه – وغيره من اللغويين- سبب اعتبار الألف أكثر هذه الأصوات ليناً واتساعاً، "لأنك قد تضم شفتيك في الواو، وترفع في

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٨.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٣٠

الياء لسانك قِبَل الحنك"[1]، في حين لا يحدث شيء من هذا مع الألف التي "تجد الفم والحلق، منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط ولا حصر"[2]، بل "تفرج، مع هذه الأصوات، كما يقول الرضي،المخرج."[3]

وقد ذهب علماؤنا القدامى إلى أن صفة المد واللين، التي تميز هذه الأصوات من غيرها من الأصوات الأخرى، تعد صفة قوة فيها، بل انَّ صوت الألف، الذي يعد واحداً من هذه الأصوات، يتصف – بسبب اتساع مخرجه كما ذكرنا – بأنه- كما يقول عبد القاهر الجرجاني – أَعذبُ أصوات المد واللين جرسا، وأمدَّها نفساً.[4]

ولعل هذا هو ما عناه المحدثون من اللغويين، عندما ذكروا أن هذه الأصوات، التي سموها أصوات المد واللين، تتسم بملمح الوضوح السمعي Sonority، الذي تقوم عليه عملية التفرقة بين هذه الأصوات من جهة، والأصوات الصامتة من جهة أخرى.

---

(١) الكتاب: ٤/ ٤٣٦.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٣٠

(٣) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٦١.

(٤) عبد القاهر الجرجاني: المقتصد. ٢/ ٢٧٧، ١٧، ٣٢٠، نقلاً عن كتاب نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. للدكتور تامر سلوم. ص: ١٩، ٢٥

إنَّ وصف سيبويه – وغيره من اللغويين العرب- لهذه الأصوات اللينة والهاوية، أو كما يسميها سيبويه نفسه بحروف اللين والمد، "يشبه – إلى حد كبير علاج المحدثين، لأنها مما يسميه الأوروبيون"Vowels"، وهي التي لا تصادف حوائل أو موانع في طريقها، بل يمر النفس معها في مجرى خال من تلك الحوائل والموانع"[1].

٨) مجموعة الأصوات ذات الاستطالة والتفشي:

تشتمل هذه المجموعة الصوتية – عند سيبويه، وعند غيره من اللغويين القدماء – على صوتين هما: الضاد، والشين، ويقصد بالاستطالة: " أن يشغل الصوت من طول اللسان مساحة تصل مخرجه بمخرج صوت آخر يجاوره"، أو "هي امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها"[2]. أما التفشي، فيُقصد به: أن هواء النفس مع الصوت (المتفشي) لا يقتصر في تسربه إلى الخارج على مخرجه فقط، أي من الفراغ الذي بين العضوين المتصلين، وإنما يتوزع و"يتفشى" في جنبات الفم. أو هو كثرة انتشار خروج الريح بين اللسان والحنك، وانبساطه في الخروج عند

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١١٦- ١١٧.

(٢) محمد نمر حماد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٧. وينظر أيضاً: د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي ص:٢٤٣ .

النطق بالحرف[1].

وقد نص سيبويه على أن الاستطالة في صوت الضاد تصلها بمخرج اللام، وأن الاستطالة في صوت الشين تصلها بمخرج الطاء[2]. وذهب ابن يعيش إلى " أنَّ الشين أشد استطالة من الضاد، وفيها تفش ليس في الضاد"[3]. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الهواء – في أثناء انتاج صوت الشين – يتوزع – كما ذكرنا قبل قليل – في جنبات الفم ، ولا يقتصر على الفراغ الموجود بين العضوين المتقاربين.

وتعد "الاستطالة أو التفشي صفة قوة في هذين الصوتين تميزهما عن مقاربهما، أو مجانسهما من الأصوات"[4].

٩) مجموعة الأصوات المشربة: عالج سيبويه، في كتابه، مجموعة من الأصوات، التي أطلق عليها مصطلح "الأصوات المشربة"، وقد قسم هذه المجموعة من الأَصوات إلى ثلاثة أقسام:

أ- أصوات مشربة مصحوبة بقلقلة: تشمل هذه المجموعة

---

(١) المرجعان السابقان: ص: ١٦، و: ص: ٢٤٣ ، وينظر أيضاً: د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ، ص:١١٩ .

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٠.

(٤) د. تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. ص: ١٩.

الصوتية خمسة أصوات، هي: (ق، ط، ب، ج، د). ويقصد بالقلقلة – عند سيبويه – ضغط يصاحب نطق هذه الأصوات "من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صُوَيْت، ونبا اللسان عن موضعه"[1]؛ فسيبويه – في هذا النص – يصف لنا آلية النطق بهذه الأصوات، التي سماها "حروف القلقلة"؛ فهي أصوات تتعرض في مخرجها إلى ضغط شديد في أثناء الوقف، ومن شأن هذا الضغط الشديد أن يؤدي – كما قال سيبويه– إلى نبو اللسان عن موضعه، مما يستتبع تذييل عملية النطق بها بما سمّاه هذا العالم "صُوَيْتاً". وهو عبارة عن صوت حركة صغيرة مختلسة لم تبلغ، في درجتها وهيئتها، درجة الحركة العادية، مثل: الفتحة، والكسرة، والضمة. وتشبه هذه الحركات المختلسة – إلى حد كبير– صوت الحركة المركزية Central Vowel، التي وصفها دانيال جونز في جدول الحركات المعيارية Cardinal Vowels، والتي تكون أعلى نقطة في اللسان حين النطق بها هي وسطه . ويرمز لهذه الحركة في جدول الرموز الدولية I P A[2]، بالرمز (ə).

---

(١) الكتاب. ٤/ ١٧٤.

(٢) الرمز I P A هو اختصار للعبارة الإنجليزية:

International Phonetic Alphabet

ويبدو لنا أن سيبويه كان يحس بهذه الصفة التي تميز هذه الحركة من غيرها من الحركات الأخرى. فهو يعقب وصفه لأصوات القلقلة، وما تتسم به من خواص، بقوله: "وبعض العرب أشدُّ صوتا، كأنهم الذين يرومون الحركة"[1]؛ فكأن شيخنا كان يدرك بحسه المرهف الدقيق أنَّ شدة التصويت بهذه الحركة، لدى بعض الناطقين العرب، من شأنه أن يقربها من الحركة العادية.

ومن المحتمل أن يكون لجوء الناطقين العرب إلى إحداث "القلقلة" في هذه الأصوات الخمسة يعود إلى إحداث " مبالغة في الجهر بالصوت لئلا تشوبه شائبة من همس"[2] يؤدي إلى اختفائه في أثناء النطق به.

ب- أصوات مشربة مصحوبة بنفخة: تشتمل هذه المجموعة الصوتية على أصوات (ز، ظ، ذ، ض) ثم ألحق سيبويه بهذه الأصوات الأربعة صوت الراء[3] ويقصد بالنفخ، الذي تحدث عنه سيبويه – فيما يبدو لنا- نوع من الضغط يصاحب النطق بهذه الأصوات ، غير أنه لا يرقى إلى مستوى قوة الضغط الذي يصاحب النطق بأصوات القلقلة.

---

(١) الكتاب. ٤/ ١٧٤

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٧٩.

(٣) الكتاب : ٤/ ١٧٤-١٧٥.

ومن شأن هذه الضغط، الذي يواكب نطق هذه الأصوات، أن يُحدث نوعاً من النَّفْخ أو النَفَسيَّة Aspiration التي تذيِّل نهاية النطق بهذه الأصوات، ولعلها تشبه النفخة التي تصحب صوت الباء الإنجليزية (P). وقد ذهب سيبويه إلى أنَّ هذه النفخة ناتجة عن توقف صوت الصدر، الذي يكسب بعض الأصوات خاصة الجهر – كما سبق أن ذكرنا في أثناء حديثنا عن معنى الجهر عند سيبويه – وعندما يتوقف صوت الصدر، فإنّه يتيح الفرصة لتيار الهواء من الجريان للتنفس، كما هو الحال مع الأصوات المهموسة، التي لا يوجد لصوت الصدر- في أثناء انتاجها- دور، كما يقول سيبويه ، مما يؤدي إلى استبدال هذه النفخة، التي تحدث عنها سيبويه ، بذبذبة الوترين الصوتيين الناتجة عن صوت الصدر.

ومن الواضح أن أصوات المجموعة الأولى أصوات انفجارية مجهورة[1]، كما أنَّ أصوات المجموعة الثانية أصوات احتكاكية مجهورة، ولكن الأصوات الأولى تحتفظ بملمح جهرها، فلا يفارقها صوت الصدر الذي يكسبها هذا الملمح، ولذلك فإنها تتسم – لتأكيد ملمح الجهر فيها- بالقلقلة، حتى لا تتعرض للخفاء، أو الهمس، "فالقلقلة

(١) عدّ القدماء صوتي الطاء والقاف –كما هو معلوم- صوتين مجهورين، خلافاً للتصنيف الصوتي الحديث الذي يعدّهما صوتين مهموسين.

ليست في الحقيقة إلاّ مبالغة في الجهر بالصوت، لئلا تشوبه شائبة من همس"[1].

أما الأصوات الثانية، فإنها تتعرض -في أثناء النطق بها- إلى توقف صوت الصدر كما ذكرنا، مما يؤدي إلى وقف الذبذبات الصوتية الصادرة عن الحنجرة، فتصحب، عندئذ، عند الوقف بالنفخ، وذلك على غرار الأصوات المهموسة، ولهذا فقد وجدنا سيبويه يصف الأصوات المهموسة بأنها مصحوبة – في أثناء الوقف عندها- بالنفخة [2].

ولعل ملمح الرخاوة أو الاحتكاك، الذي يميز أصوات المجموعة الأخيرة، يمكِّن النفخة، التي تحدث عنها سيبويه، من الخروج من الفرجة أو المنفذ الكائن عند موضع انتاج الصوت. ولهذا فقد وجدنا سيبويه ينص على أنَّ "الضاد تجد المنفذ من بين الأضراس"[3]، ووجدنا الرضي ينص على أنَّ "الظاء والذال والزاي تجد منفذاً من بين الثنايا"[4].

ج- أصوات مشربة غير مصحوبة بقلقلة ولا نفخة : تشتمل هذه المجموعة الصوتية على أصوات: (ل، ن، م، ع، غ، ء) فهذه

---

(١) د. ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية : ص:١٧٩ .

(٢) الكتاب. ٤/ ١٧٥.

(٣) السابق. ٤/ ١٧٤، وشرح الشافية ٣/ ٢٦٣.

(٤) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٦٣.

الأصوات لا تتعرض – كما يذكر سيبويه– للضغط، الذي تتعرض له مجموعة الأصوات الأولى ، فلا تتسم – بالتالي– بخاصة القلقلة، ولا تجد منفذاً، كالذي تجده مجموعة الأصوات الثانية، فلا تتبعها – بالتالي – النفخة.

وإذا كانت مجموعة الأصوات الأولى تشتمل على أصوات انفجارية مجهورة ومجموعة الأصوات الثانية تشتمل على أصوات احتكاكية مجهورة، فإنّ هذه المجموعة الصوتية تشتمل على أصوات فيها من خصائص المجموعة الأولى، وخصائص المجموعة الثانية؛ أي أنها تشتمل على أصوات انفجارية – كما يصنفها القدماء – وهي أصوات: (ل، ن، م، ء)، وأصوات احتكاكية، وهي أصوات: (ع، غ). وتجدر الإشارة إلى أنَّ أصوات هذه المجموعات الثلاث تتسم بملمح الجهر الذي يجمع بينها ويميزها من غيرها من الأصوات.

ويبدو لنا أن سيبويه قد استخدم مصطلح الحروف المشربة ليطلقه على الأصوات المجهورة، وما تتعرض له في أثناء النطق بها من قلقلة، أو نفخ، أو خلو من خاصتي القلقلة والنفخ، وذلك في مقابل الأصوات المهموسة "غير المشربة"، التي تتسم – بالإضافة خصائصها المميزة لها – بخاصة النفخ [1] كسمة طبيعية فيها لا طارئة عليها؛ فكأن

(١) الكتاب ٤/ ١٧٥-١٧٦.

"الاشراب" عند هذا العالم الشيخ، صفة تكافئ الجهر، أو تحدد ما يطرأ عليه في أثناء النطق، وما يداخله من رنين وقوة يخلو منها الصوت المهموس.